المجلس الثالث في ذكر وفاة رسول ا صلى ا عليه و سلم .

في الصحيحين [من حديث أبي سعيد الخدري Bه أن رسول ا صلى ا عليه و سلم جلس على المنبر فقال : إن عبدا خيره ا بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء و بين ما عنده فاختار ما عنده فبكى أبو بكر و قال : يا رسول ا فديناك بآبائنا و أمهاتنا قال : فعجبنا و قال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول ا صلى ا عليه و سلم عن عبد خيره ا بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء و بين ما عند ا و هو يقول : فديناك بآبائنا و أمهاتنا قال : فكان رسول ا صلى ا عليه و سلم هو المخير و كان أبو بكر هو أعلمنا به فقال النبي صلى ا عليه و سلم : إن من آمن الناس علي في صحبته و ماله أبو بكر و لو اتخذت من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا و لكن إخوة الإسلام لا تبقى في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر Bه] الموت مكتوب على كل حي الأنبياء و الرسل و غيرهم قال ا تعالى لنبيه صلى ا عليه و سلم : { إنك ميت و إنهم ميتون } و قال : { و ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت و نبلوكم بالشر و الخير فتنة و إلينا ترجعون } و قال : { و ما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم } الآيتين .

خلق ا تعالى آدم من تراب الأرض و نفخ فيه من روحه فكانت روحه في جسده و أرواح ذريته في أجسادهم في هذه الدار عارية و قضى عليه و على ذريته أنه لا بد من أن يسترد أرواحهم من هذه الأجساد و يعيد أجسادهم إلى ما خلقت منه و هو التراب و وعد أن يعيد الأجساد من الأرض مرة ثانية ثم يرد إليها الأرواح مرة ثانية تمليكا دائما لا رجعة فيه في دار البقاء قال ا تعالى : { قال فيها تحيون و فيها تموتون و منها تخرجون } و قال : { منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى } و قال : { و ا أنبتكم من الأرض نباتا * ثم يعيدكم فيها و يخرجكم إخراجا } و أرانا دليلا في هذه الدار على إعادة الأجساد من التراب بإنبات الزرع من الأرض و إحياء الأرض بعد موتها بالمطر و دليلا على إعادة الأرواح إلى أجسادها بعد المفارقة بقبض أرواح العباد في منامهم و ردها إليهم في يقظتهم كما قال تعالى : { ا يتوفى الأنفس حين موتها و التي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون } و في مسند البزار [عن أنس أن النبي صلى ا عليه و سلم قال لهم لما ناموا عن الصلاة : إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد فيقبضها إذا شاء و يرسلها إذا شاء] .

(استعدي للموت يا نفس واسعي ... للنجاة فالحازم المستعد) .

(قد تيقنت أنه ليس للحي ... خلود و لا من الموت بد) .

(إنما أنت مستعيرة ما سـ ... وف تردين و العواري ترد) .

* * * .

(فما أهل الحياة لنا بأهل ... و لا دار الحياة لنا بدار) .

(و ما أموالنا و الأهل فيها ... و لا أولادنا إلا عواري) .

(و أنفسنا إلى أجل قريب ... سيأخذها المعير من المعار) .

مفارقة الجسد للروح لا تقع إلا بعد ألم عظيم تذوقه الروح و الجسد جميعا فإن الروح قد تعلقت بهذا الجسد و ألفته و اشتدت إلفتها له و امتزاجها به و دخولها فيه حتى صارا كالشيء الواحد فلا يتفارقان إلا بجهد شديد و ألم عظيم و لم يذق ابن آدم حياته ألما مثله و إلى ذلك الإشارة بقول ا عز و جل : { كل نفس ذائقة الموت } قال الربيع بن خثيم أكثروا ذكر هذا الموت فإنكم لم تذوقوا قبله مثله و يتزايد الألم بمعرفة المحتضر فإن جسده إذا فارقته الروح صار جيفة مستقذرة يأكله الهوام و يبليه التراب حتى يعود ترابا و إن الروح المارقة له لا تدري أين مستقرها هل هو في الجنة أو في النار فإن كان عاصيا مصرا على المعصية إلى الموت فربما غلب على ظنه أن روحه تصير إلى النار فتتضاعف بذلك حسرته و ألمه و ربما كشفت له مع ذلك عن مقعده من النار فرآه أو يبشر بذلك فيجتمع له مع كرب الموت و ألمه العظيم معرفته بسوء مصيره و هذا المراد بقول ا عز و جل : { و التفت الساق بالساق } على ما فسر به كثير من السلف فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت فلا يسأل عن سوء حاله و قد سمى ا تعالى ذلك سكرة لأن ألم الموت مع ما ينضم إليه يسكر صاحبه فيغيب عقله غالبا قال ا تعالى : { و جاءت سكرة الموت بالحق } : .

(ألا الموت كأس أي كأس ... و أنت لكائسه لا بد حاسي) .

(إلى كم و الممات إلى قريب ... تذكر بالممات و أنت ناسي) .

و قد أمر النبي صلى ا عليه و سلم بكثرة ذكر الموت فقال : [أكثروا ذكر هادم اللذات الموت] و في حديث مرسل أنه صلى ا عليه و سلم مر بمجلس قد استعلاه الضحك فقال [شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات الموت] و في الإكثار من ذكر الموت فوائد منها : أنه يحث على الإستعداد له قبل نزوله و يقصر الأمل و يرضى بالقليل من الرزق و يزهد في الدنيا و يرغب في الآخرة و يهون مصائب الدنيا و يمنع من الأشر و البطر و التوسع في لذات الدنيا و [في حديث أبي ذر المرفوع الذي خرجه ابن حبان في صحيحه و غيره : أن صحف موسى كانت عبرا كلها] عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب عجبت لمن رأى الدنيا و سرعة تقبلها كيف يطمئن إليها و قد رزي أن الكنز الذي

كان للغلامين كان لوحا من ذهب مكتوب فيه هذا أيضا قال الحسن : إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم فالتمسوا عيشا لا موت فيه و قال : فضح الموت الدنيا فلم يدع لذي لب بها فرحا و قال غيره : ذهب الموت بلذاذة كل عيش و سرور كل نعيم ثم بكى و قال : واها لدار لا موت فيها .

(اذكر الموت هادم اللذات ... و تهيأ لمصرع سوف يأتي غيره) .

(يا غافل القلب عن ذكر المنيات ... عما قليل ستلقى بين أموات) .

(فاذكر محلك من قبل الحلول به ... و تب إلى ا من لهو و لذات) .

(إن الحمام له وقت إلى أجل ... فاذكر مصائب أيام و ساعات) .

(لا تطمئن إلى الدنيا و زينتها ... قد آن للموت يا ذا اللب أن يأتي) .

قال بعض السلف : شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا : ذكر الموت و الوقوف بين يدي ا عز و جل .

(كيف يلذ العيش من كان موقنا ... بأن المنايا بغتة ستعاجله) .

(و كيف يلذ العيش من كان موقنا ... بأن إله الخلق لا بد سائله) .

قال أبو الدرداء : كفى بالموت واعظا و كفى بالدهر مفرقا اليوم في الدور و غدا في القبور .

(اذكر الموت و داوم ذكره ... إن في الموت لذي اللب عبر) .

(و كفى بالموت فاعلم واعظا ... لمن الموت عليه قد قدر) .

غفلة الإنسان عن الموت مع أنه لا بد له منه من العجب و الموجب له طول الأمل .

(كلنا في غفلة و المـ ... وت يغدو و يروح) .

(لبنى الدنيا من المـ ... وت غبوق و صبوح) .

(سيصير المرء يوما ... جسدا ما فيه روح) .

(بين عيني كل حي ... علم الموت يلوح) .

(نح على نفسك يا مسكـ ... ين إن كنت تنوح) .

(لتموتن و لو عمـ ... رت ما عمر نوح) .

لما كان الموت مكروها بالطبع لما فيه من الشدة و المشقة العظيمة لم يمت نبي من الأنبياء حتى يخير و لذلك وقع التردد فيه في حق المؤمن كما [في حديث أبي هريرة عن النبي صلى ا عليه و سلم : يقول ا عز و جل : و ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت و أكره مساءته و لا بد له منه] كما رواه البخاري قال ابن أبي المليكة : [لما قبض إبراهيم عليه السلام قال ا عز و جل له : كيف وجدت الموت ؟ قال : يا رب كأن نفسي تنزع بالبلى فقال : هذا و قد هونا عليك الموت] و قال أبو إسحاق

: قيل لموسى عليه السلام : كيف وجدت طعم الموت قال : وجدته كسفود أدخل في صوف فاجتذب قال : هذا و قد هونا عليك الموت و يروى أن عيسى عليه السلام كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دما و كان يقول للحواريين : ادعوا ا أن يخفف عني الموت فلقد خفت الموت خوفا أوقفني مخافة الموت على الموت كيف يطمع في البقاء و ما من الأنبياء إلا من مات أم كيف يؤمن هجوم المنايا و لم يسلم الأصفياء و الأحباء هيهات هيهات .

(قد مات كل نبي ... و مات كل بنيه) .

(و مات كل شريف ... و عاقل و سيفه) .

(لا يوحشنك طريق ... كل الخلائق فيه) .

أول ما أعلم النبي صلى ا عليه و سلم من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة : { إذا جاء نصر ا و الفتح } و قيل لابن عباس Bهما : هل كان يعلم رسول ا صلى ا عليه و سلم متى يموت ؟ قال : نعم قيل : و من أين ؟ قال : إن ا تعالى جعل علامة موته هذه السورة : { إذا جاء نصر ا و الفتح } يعني فتح مكة { و رأيت الناس يدخلون في دين ا أفواجا } ذلك علامة موته و قد كان نعى نفسه إلى فاطمة عليها السلام فإن المراد من هذه السورة : أنك يا محمد إذا فتح ا عليك البلاد و دخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجا فقد اقترب أجلك فتهيأ للقائنا بالتحميد و الإستغفار فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به من أداء الرسالة و التبليغ و ما عندنا خير لك من الدنيا فاستعد للنقلة إلينا قال ابن عباس : لما نزلت هذه السورة نعيت لرسول ا صلى ا عليه و سلم نفسه فأخذ في أشد ما كان اجتهادا في أمر الآخرة و روي في حديث : [إنه تعبد حتى صار كالشن البالي] [و كان يعرض القرآن كل عام على جبريل مرة فعرضه ذلك العام مرتين] [و كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام فاعتكف فيه ذلك العام عشرين] [و أكثر من الذكر و الإستغفار] قالت أم سلمة : [كان رسول ا صلى ا عليه و سلم في آخر أمره لا يقوم و لا يقعد و لا يذهب و لا يجيء إلا قال سبحان ا و بحمده فذكرت ذلك له فقال : إني أمرت بذلك] و تلا هذه السورة و قالت عائشة Bها : [كان رسول ا صلى ا عليه و سلم يكثر أن يقول قبل موته : سبحان ا و بحمده استغفر ا و أتوب إليه فقلت له : إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعو به قبل اليوم ؟ قال : إن ربي أخبرني أنني سأرى علما في أمتي و إني إذا رأيته أن أسبح بحمده و أستغفره و قد رأيته ثم تلا هذه السورة] إذا كان سيد المحسنين يؤمر بأن يختم أعماله بالحسنى فكيف يكون حال المذنب المسيء المتلوث بالذنوب المحتاج إلى التطهير من لم ينذره باقتراب أجله و حي أنذره الشيب و سلب أقرانه بالموت .

(كفى مؤذنا باقتراب الأجل ... شباب تولى و شيب نزل) .

(و موت الأقران و هل بعده ... بقاء يؤمله من عقل) .

(إذا ارتحلت قرناء الفتى ... على حكم ريب المنون ارتحل) .

قال وهب بن الورد : إم ملكا ينادي في السماء كل يوم و ليلة أبناء الخمسين : زرع دنا حصاده أبناء الستين : هلموا إلى الحساب أبناء السبعين : ماذا قدمتم و ماذا أخرتم أبناء الثمانين : لا عذر لكم و عن وهب قال : ينادي مناد : أبناء الستين : عدوا أنفسكم في الموتى و في صحيح البخاري [عن أبي هريرة عن النبي صلى ا عليه و سلم قال : أعذر صلى ا عليه و سلم إلى من بلغه ستين من عمره] و في حديث آخر : [إذا كان يوم القيامة نودي أين أبناء الستين و هو العمر الذي قال ا فيه : { أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر }] و في الترمذي عنه صلى ا عليه و سلم قال : [أعمار أمتي بين الستين إلى السبعين و أقلهم من يجوز ذلك] و في حديث آخر : [معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين] و في حديث آخر : [إن لكل شيء حصادا و حصاد أمتي ما بين الستين إلى السبعين] و في هذا المعترك قبض النبي صلى ا عليه و سلم قال سفيان الثوري : من بلغ سن رسول ا صلى ا عليه و سلم فليتخذ لنفسه كفنا .

(و إن أمر قد سار ستين حجة ... إلى منهل من و لقريب) .

قال الفضيل لرجل : كم أتى عليك ؟ قال : ستون سنة قال له : أنت من ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ فقال الرجل : إنا و إنا إليه راجعون فقال فضيل : من علم أنه عبد و أنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف و أنه مسؤول فليعد للمسألة جوابا فقال له الرجل : فما الحيلة ؟ قال : يسيرة قال : ماهي ؟ قال : تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى فإنك إن أسأت فيما بقي أخذت بما مضى و ما بقى .

(خذ في جد فقد تولى العمر ... كم ذا التفريط قد تدانى الأمر) .

(أقبل فعسى يقبل منك العذر ... كم تبنى كم تنقض كم ذا الغدر) .

و ما زال صلى ا عليه و سلم يعرض باقتراب أجله في آخر عمره فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس : [خذوا عني مناسككم فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا] و طفق يودع الناس فقالوا : هذه حجة الوداع فلما رجع من حجته إلى المدينة جمع الناس بماء يدعى خما في طريقه بين مكة و المدينة فخطبهم و قال : [أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ثم حض على التمسك بكتاب ا و وصى بأهل بيته] ثم إنه لما بدأ به مرض الموت خير بين لقاء ا و بين زهرة الدنيا و البقاء فيها ما شاء ا فاختار لقاء ا و خطب الناس و أشار إليهم بذلك إشارة من غير تصريح .

و كان ابتداء مرضه في أواخر شهر صفر و كان مدة مرضه ثلاثة عشر يوما في المشهور و قيل : أربعة عشر يوما و قيل : اثنا عشر يوما و قيل : عشرة أيام و هو غريب و كانت خطبته التي خطب بها في حديث أبي سعيد هذا الذي نتكلم عليه ههنا في ابتداء مرض ففي المسند و صحيح

ابن حبان [عن أبي سعيد الخدري قال : خرج إلينا رسول ا صلى ا عليه و سلم في مرضه الذي مات فيه و هو معصوب الرأس فقام على المنبر فقال : إن عبدا عرضت عليه الدنيا و زينتها فاختار الآخرة قال : فلم يفطن لها أحد من القوم إلا أبو بكر فقال : بأبي و أمي بل نفديك بأموالنا و أنفسنا و أولادنا قال : ثم هبط عن المنبر فما رؤي عليه حتى الساعة] .

و في المسند [عن أبي مويهبة : أن النبي صلى ا عليه و سلم خرج ليلة إلى البقيع فاستغفر لأهل البقيع و قال : ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا يتبع آخرها أولها الآخرة شر من الأولى ثم قال : يا أبا موهبة إني قد أعطيت خزائن الدنيا و الخلد ثم الجنة فخيرت بين ذلك و بين لقاء ربي فاخترت لقاء ربي و الجنة ثم انصرف فابتدأه وجعه الذي قبضه ا فيه] لما قويت معرفة الرسول صلى ا عليه و سلم بربه ازداد حبه له و شوقه إلى لقائه فلما خير بين البقاء في الدنيا و بين لقاء ربه اختار لقاءه على خزائن الدنيا و البقاء فيها سئل الشبلي هل يقنع المحب بشيء من حبيبه دون مشاهدته فأنشد : .

(و ا لو أنك توجتني ... بتاج كسرى ملك المشرق) .

(و لو بأموال الورى جدت لي ... أموال من باد و من قد بقي) .

(و قلت لي : لا نلتقي ساعة ... اخترت يا مولاي أن نلتقي) .

لما عرض الرسول صلى ا عليه و سلم على المنبر باختياره اللقاء على البقاء و لم يصرح خفي المعنى على كثير ممن سمع و لم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به ثاني اثنين إذ هما في الغار و كان أعلم الأمة بمقاصد الرسول صلى ا عليه و سلم فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى و قال : بل نفديك بأموالنا و أنفسنا و أولادنا فسكن الرسول صلى ا عليه و سلم جزعه و أخذ في مدحه و الثناء عليه على المنبر ليعلم الناس كلهم فضله و لا يقع عليه اختلاف في خلافته فقال : [إن من أمن الناس علي في صحبته و ماله أبو بكر] و في رواية أخرى أنه قال : [ما لأحد عندنا يد إلا و قد كافأناه ما خلا أبو بكر فإن له عندنا يدا يكافئه ا يوم القيامة بها و ما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر] خرجه الترمذي ثم قال رسول ا صلى ا عليه و سلم : [لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا و لكن إخوة الإسلام] لما كان رسول ا صلى ا عليه و سلم خليل ا لم يصلح له أن يخالل مخلوقا فإن الخليل من جرت محبة خليله منه مجرى الروح و لا يصلح هذا لبشر كما قيل : .

(قد تخللت مسلك الروح مني ... و بذا سمي الخليل خليلا) .

و لهذا المعنى قيل : إن إبراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده و لم يكن المقصود غراقة دم الولد بل تفريغ محل الخلة لمن لا يصلح أن يزاحمه فيها أحد .

(أروح و قد ختمت على فؤادي ... بحبك أن يحل به سواكا) .

(فلو أني استطعت غضضت طرفي ... فلم أنظر به حتى أراك) .

ثم قال صلى ا عليه و سلم : [لا يبقين خوخة في المسجد إلا سدت إلا خوخة أبي بكر] .

و في رواية : [سدوا هذه الأبواب الشارعة في المسجد إلا باب أبي بكر] و في هذه الإشارة إلى أن أبا بكر هو الإمام بعده فإن الإمام يحتاج إلى سكنى المسجد و الإستطراق فيه بخلاف غيره و ذلك من مصالح المسلمين المصلين في المسجد ثم أكد هذا المعنى بأمره صريحا أن يصلي بالناس أبو بكر فروجع في ذلك فغضب و قال : [مروا أبا بكر فليصل بالناس] فولاه إمامة الصلاة دون غيره و أبقى استطراقه من داره إلى مكان الصلاة و سد استطراق غيره و في ذلك إشارة واضحة إلى استخلافه على الأمة دون غيره و لهذا قالت الصحابة عند بيعة أبي بكر : رضيه رسول ا صلى ا عليه و سلم لديننا فكيف لا نرضاه لدنيانا و لما قال أبو بكر : قد أقلتكم بيعتي قال علي : لا نقيلك و نستقيلك قدمك رسول ا صلى ا عليه و سلم فمن ذا يؤخرك لما انطوى بساط النبوة من الأرض بوفاة الرسول صلى ا عليه و سلم لم يبق على وجه الأرض أكمل من درجة الصديقية و أبو بكر رأس الصديقين فلهذا استحق خلافة الرسول و القيام مقامه و كان النبي صلى ا عليه و سلم قد عزم على أن يكتب لأبي بكر كتابا لئلا يختلف عليه ثم أعرض عن ذلك لعلمه أنه لا يقع غيره و قال : [يأبى ا و المؤمنون إلا أبا بكر] و ربما كان ترك ذلك لئلا يتوهم متوهم أن نصه على خلافته كانت مكافأة ليده التي كانت له و الولايات كلها لا يقصد بها مصلحة المولى بل مصلحة المسلمين عامة .

و كان أول ما ابتدىء به رسول ا صلى ا عليه و سلم من مرضه وجع رأسه و لهذا خطب و قد عصب رأسه بعصابة دسماء و كان صداع الرأس و الشقيقة يعتريه كثيرا في حياته و يتألم منه أياما و صداع الرأس من علامات أهل الإيمان و أهل الجنة و قد روي [عن النبي صلى ا عليه و سلم : أنه وصف أهل النار فقال : هم الذين لا يألمون رؤوسهم] و دخل عليه أعرابي فقال له : [يا أعرابي هل أخذك هذا الصداع ؟ فقال : و ما الصداع ؟ قال : عروق تضرب على الإنسان في رأسه فقال : ما وجدت هذا فلما ولى الأعرابي قال النبي صلى ا عليه و سلم : من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا] خرجه الإمام أحمد و النسائي و قال كعب : أجد في التوراة لولا أن يحزن عبدي المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبدا و في المسند [عن عائشة Bها قالت : دخل علي رسول ا صلى ا عليه و سلم في اليوم الذي بدأ فيه فقلت : وارأساه فقال : وددت أن ذلك كان وأنا حي فهيأتك و دفنتك فقلت : غيراء كأني بك في ذلك اليوم عروسا ببعض نسائك فقال : أنا وارأساه ادعو لي أباك و أخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا فإني أخاف أن يقول قائل و يتمنى متمن و يأبى ا و المؤمنون إلا أبا بكر] و خرجه البخاري بمعناه و لفظه : [أن عائشة Bها قالت : وارأساه فقال رسول

ا صلى ا عليه و سلم : ذاك لو كان و أنا حي فأستغفر و أدعو لك قالت عائشة : واثكلاه و ا إني لأظنك تحب موتي و لو كان ذلك لظللت آخر يومك معرسا ببعض أزواجك فقال النبي صلى ا عليه و سلم : بل أنا وارأساه] و ذكر بقية الحديث و في المسند أيضا [عنها قالت كان رسول ا صلى ا عليه و سلم إذا مر ببابي كثيرا ما يلقي الكلمة ينفع ا بها فمر ذات يوم فلم يقل شيئا مرتين أو ثلاثا قلت : يا جارية ضعي لي وسادة على الباب وعصبت رأسي فمر بي و قال : يا عائشة ما شأنك ؟ فقلت : أشتكي رأسي فقال : أنا وارأساه فذهب فلم يلبث إلا يسيرا حتى جيء به محمولا في كساء فدخل علي فبعث إلى النساء و قال : إني اشتكيت أني لا أستطيع أن أدور بينكن فأذن لي فلأكن عند عائشة] و فيه أيضا عنها قالت : [رجع إلي النبي صلى ا عليه و سلم ذات يوم من جنازة بالبقيع و أنا أجد صداعا في رأسي و أنا أقول وارأساه ثم قال : ما ضرك لو مت قبلي فغسلتك و كفنتك ثم صليت عليك و دفنتك فقلت : لكأني بك و ا لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك فتبسم رسول ا صلى ا عليه و سلم ثم بدأ في وجعه الذي مات فيه] .

[فقد تبين أن أول مرضه كان صداع الرأس و الظاهر أنه كان مع حمى فإن الحمى اشتدت به في مرضه فكان يجلس في مخضب و يصب عليه الماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن يتبرد بذلك و كان عليه قطيفة فكانت حرارة الحمى تصيب من وضع يده عليه من فوقها فقيل له في ذلك ؟ فقال : إنا كذلك يشدد علينا البلاء و يضاعف لنا الأجر و قال : إني أوعك كما يوعك رجلان منكم و من شدة وجعه كان يغمى عليه في مرضه ثم يفيق و حصل له ذلك غير مرة فأغمي عليه مرة و ظنوا أن وجعه ذات الجنب فلدوه فلما أفاق أنكر ذلك و أمر أن يلد من ولده و قال : إن ا لم يكن ليسلطها علي يعني ذات الجنب و لكنه من الأكلة التي أكلتها يوم خيبر يعني : أنه نقض عليه سم الشاة التي أهدتها له اليهودية فأكل منها يومئذ فكان ذلك يثور عليه أحيانا فقال في مرض موته : ما زالت أكلة خيبر تعاودني فيها أوان انقطاع أبهري و كان ابن مسعود و غيره يقولون : إنه مات شهيدا من السم و قالت عائشة : ما رأيت أحدا كان أشد عليه الوجع من رسول ا صلى ا عليه و سلم و كان عنده في مرضه سبعة دنانير فكان يأمرهم بالصدقة بها ثم يغمى عليه فيشتغلون بوجعه فدعا بها فوضعها في كفه يأمرهم بالصدقة بها ثم يغمى عليه فيشتغلون بوجعه فدعا بها فوضعها في كفه و قال : ما ظن محمد بربه لو لقي ا و عنده هذه ثم تصدق بها كلها فكيف يكون حال من لقي ا و عنده دماء المسلمين و أموالهم المحرمة و ما ظنه بربه] .

و لم يكن عندهم في مرضه دهن للمصباح يوقد فيه فلما اشتد وجعه ليلة الإثنين أرسلت عائشة بالمصباح إلى امرأة من النساء فقالت قطري لنا في مصباحنا من عكة السمن فإن رسول ا صلى ا عليه و سلم أمسى في جديد الموت و كان عند عائشة إزار غليظ مما صنع باليمن و كساء من

الملبدة فكانت تقسم باﷲ أن رسول اﷲ صلى اﷲ عليه و سلم قبض فيهما و دخلت عليه فاطمة عليها السلام في مرضه فسارها رسول اﷲ بشيء فبكت ثم سارها فضحكت فسئلت عن ذلك ؟ فقالت : لا أفشي سر رسول اﷲ صلى اﷲ عليه و سلم فلما توفي سئلت ؟ فقالت : أخبرني أنه يموت في مرضه فبكيت ثم أخبرني أني أول أهله لحوقا به و أني سيدة نساء العالمين فضحكت فلما احتضر صلى اﷲ عليه و سلم اشتد به الأمر [فقالت عائشة : ما أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول اﷲ صلى اﷲ عليه و سلم قالت : و كان عنده قدح من ماء فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء و يقول : اللهم أعني على سكرات الموت قالت : و جعل يقول : لا إله إلا اﷲ إن للموت لسكرات] و في حديث مرسل أنه قال : [اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب و القصب و الأنامل اللهم فأعني على الموت و هونه علي] و لما ثقل النبي صلى اﷲ عليه و سلم جعل يتغشاه الكرب قالت فاطمة عليها السلام : واكرب أبتاه فقال لها : [لا كرب على أبيك بعد اليوم] و في حديث خرجه ابن ماجه : أنه صلى اﷲ عليه و سلم قال لفاطمة : [إنه قد حضر من أبيك ما ليس اﷲ بتارك منه أحد الموافاة يوم القيامة] .

ولم يقبض صلى اﷲ عليه و سلم حتى خير مرة أخرى بين الدنيا و الآخرة قالت عائشة كان النبي صلى اﷲ عليه و سلم يقول : [إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير] فلما نزل به و رأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال : [اللهم الرفيق الأعلى] فقلت : الآن لا يختارنا و علمت أنه الحديث الذي كان يحدثناه وهو صحيح فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها و في رواية أنه قال : [اللهم اغفر لي و ارحمني و ألحقني بالرفيق الأعلى] و في رواية [أنه أصابه بحة شديدة فسمعته يقول : { مع الذين أنعم اﷲ عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقا } قالت : فظننت أنه خير] .

و هذه الروايات مخرجة في صحيح البخاري و غيره و قد روي ما يدل على أنه قبض ثم رأى مقعده من الجنة ثم ردت إليه نفسه ثم خير : ففي المسند [عن عائشة Bها قالت كان رسول اﷲ صلى اﷲ عليه و سلم يقول : ما من نبي إلا يقبض نفسه ثم يرى الثواب ثم ترد إليه فيخير بين أن ترد إليه أو يلحق] فكنت قد حفظت ذلك منه فإني لمسندته إلى صدري فنظرت إليه حتى مالت عنقه فقلت : قد قضى قالت : فعرفت الذي قال : فنظرت إليه حتى ارتفع و نظر فقالت : إذا و اﷲ لا يختارنا فقال : مع الرفيق الأعلى في الجنة { مع الذين أنعم اﷲ عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين } إلى آخر الآية و في صحيح ابن حبان عنها قالت : [أغمي على رسول اﷲ صلى اﷲ عليه و سلم و رأسه في حجري فجعلت أمسحه و أدعو له بالشفاء فلما أفاق قال : لا بل أسأل اﷲ الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل و إسرافيل] و فيه و في المسند عنها : [أنها كانت ترقيه في مرضه الذي مات فيه فقال : ارفعي يدك فإنها كانت

تنفعني في المدة] قال الحسن لما كرهت الأنبياء الموت هون ا عليهم بلقاء ا و بكل ما أحبوا من تحفة أو كرامة حتى أن نفس أحدهم لتنزع من بين جنبيه وهو يحب ذلك لما قد مثل له وفي المسند [عن عائشة Bها أن النبي صلى ا عليه و سلم قال : إنه ليهون علي الموت إني رأيت بياض كف عائشة في الجنة] وخرجه ابن سعد وغيره مرسلا انه قال صلى ا عليه و سلم : [لقد أريتها في الجنة ليهون بذلك علي موتي كأني أرى كفيها] يعني عائشة كان النبي صلى ا عليه و سلم يحب عائشة Bها حبا شديدا حتى لا يكاد يصبر عناه فمثلت له بين يديه في الجنة ليهون عليه موته فإن العيش إنما يطيب باجتماع الأحبة و قد سأله رجل : أي النساء أحب إليك ؟ فقال : [عائشة فقال له فمن الرجال ؟ قال : أبوها] و لهذا قال لها في ابتداء مرضه لما قالت : وارأساه : وددت أن ذلك كان و أنا حي فأصلي عليك و أدفنك فعظم ذلك عليها و ظنت أنه يحب فراقها و إنما كان يريد تعجيلها بين يديه ليقرب اجتماعهما و قد كانت عائشة مضغت له صلى ا عليه و سلم سواكا و طيبته بريقها ثم دفعته إليه فاستن به أحسن استنان ثم ذهب يتناوله فضعفت يده عنه فسقط من يده فكانت عائشة تقول : جمع ا بي ريقي وريقه في أخر يوم من الدنيا و أول يوم من الآخرة و الحديث مخرج في الصحيحين